

ملاحح السرد في بناء الشخصية رواية الثائر الأحمر لعلي أحمد باكثير نموذجاً

د. فايز صلاح قاسم عثمانة(*)

المقدمة :

واجه البحث جملة من الإشكاليات، تمثلت في قلة الدراسات حول الرواية قيد الدراسة، بل تكاد تنعدم بافتقار المكتبة العربية إلى دراسة شاملة ومتكاملة، تختص بموضوع البناء السردى الروائى -على وجه الخصوص- باستثناء دراسة: نادر عبد الخالق^(١)، التي عرض من خلالها للشخصية الروائية عند علي أحمد باكثير (١٩٦٩ - ١٩١٠) ونجيب الكيلاني (١٩٣١ - ١٩٩٥)، ولعل ذلك الشح نابع من حداثة الرواية العربية بالرغم من وجود روايات تختزن في بنيتها الداخلية كثيراً من الموضوعات لم تطرق بعد.

ويمكن الانطلاق في فضاء البحث من خلال المحاور الآتية: دور الشخصيات الفاعلة والأحداث التاريخية، وفاعلية الشخصية التراثية في بناء الرواية، وشخصية البطل في الرواية، وآلية توظيف الشخصية والحدث التاريخي، ومقاومة فكرة الظلم.

ومن الأسئلة المهمة المطروحة التي تحتاج إلى إجابة البحث عنها؛ وتشكل نواة حقيقية لكثير من موضوعات البحث، هما: هل الشخصية المستحضرة كلية

(*) أستاذ مساعد بكلية الآداب - جامعة الملك فيصل - المملكة العربية السعودية.

(١) نادر عبد الخالق، الشخصية الروائية بين علي أحمد باكثير ونجيب الكيلاني، القاهرة: دار العلم والإيمان، ط١، ٢٠١٠م.

أم جزئية، شمولية أم متفاوتة عامة أم خاصة خيالية أم حقيقية؟ وكذلك مدى العلاقة التي تربط بين التاريخ والرواية؛ بوصفها بنية سردية وليس مسألة حقائق وخيال أو واقعي، ذلك ما يهدف إليه البحث في التبصر والتنوير والرؤية.

١-١ دور الشخصيات الفاعلة والأحداث التاريخية في بناء الرواية:

The role of active characters

تعد الشخصية الروائية بشكلها العام والخاص، ضرورة ملحة في بنية الرواية وقوامها الطبيعي لتحريك الأحداث والأقوال والأفعال، ونظراً لهذا المعطى تتبع أهمية الشخص و تتحرك وتتمى تلك الفواعل النصية بمسرحة الأحداث وتوزيع أدوارها؛ لتحدث مواءمة في بنية النص العميقة بحيثين عكس ذلك على المكون الفعلي في إقامة فكرة رئيسة تخدم كبنية العمل: "تعد الشخصيات مكوناً رئيساً من مكونات النص السردية، إنها القسم الثاني من أقسام الخبر الذي لا تكون الحكاية دونه؛ فالشخصيات في الرواية هي التي تجعل الأحداث ذات وجود فعلي في واقع العالم الروائي ودونها لا تكون الأحداث إلا أعمالاً خاماً لا أثر لها، ومن تفاعل الشخصيات مع الأحداث والإطار الزمني والمكاني تتولد الدلالة"^(١).

وقد عمل "فيليب هامون" على بلورة تصور سيميائي دلالي للشخصية عندما تحدث عما أسماه (أثر الشخصية Effect of personality): "تتم المعارضة بين الشخصيات كما يرى فيليب هامون انطلاقاً من عدة نقاط مثل: الجنس والسن والمال والمعتقد وغيرها"^(٢)، وهي ليست معطى جاهزاً بل هي

(١) للمزيد انظر، محمد آيت ميهوب، الرواية السير ذاتية في الأدب العربي المعاصر، ص: ٢٥١، ٢٠١٦م.

(٢) حسناء سعادة، تشكيلات الشخصية الروائية. مجلة الباحث، ٣٤، ص: ٢١٦، ٢٠١٠م.

د. فايز صلاح قاسم عثمانة

إنشاء يتم تدريجياً على امتداد القراءة، ونبه "هامون" لكون الشخصية ليست حصراً ذات مفهوم أدبي ولا شكل إنساني، ونظراً لتشعب مقولة الشخصية، فإن هامون يتطرق إلى المستويات المتعددة التي تنطلق منها أصناف الخطاب النقدي. ذلك أن الشخصية لا تهم فقط الدارس البنيوي، وإنما أيضاً الباحث الذي يعنى بالمستوى النفسي وبالمستوى السوسولوجي للشخصية^(١).

وتوافر الشخصية في النص السردي رهين تضافر أدوار ثلاثة، هي: الدور الفاعلي؛ وفيه يُنظر في انتماء الشخصية إلى أحد الفواعل الستة، والدور التمثيلي؛ وفيه يُرى من ينهض بهذا الدور الفاعلي أو ذاك بقطع النظر عن الشكل الإنساني أو عن عدد الممثلين الفعلي، والدور الغرضي؛ وفيه يحدد الدور الاجتماعي الثقافي النفسي للشخصية، وبهذا تكون الشخصية نظاماً ينشئه النص تدريجياً، لكنها لا تعدم في بداية ظهورها هوية عامة، فهي في البداية شكل أو بنية عامة، وكلما أضيف إليها خصائص أضحت معقدة، غنية، مرغبة من دون أن تفقد هويتها الأصلية، والمتلقي إذ يتلقى كماً غزيراً من خصائص الشخصية الدلالية، ينتقي ما يراه به أصلح، فينسى بعضها وقد يضيف غيرها^(٢).

فاعلية الشخصية التراثية في بناء الرواية:

Effectiveness of heritage personality

مما سبق من تعريف للشخصية في الرواية، وبخاصة فيما يتعلق بأدوارها الفاعلة في النص يمكن تقديم العرض التالي لتطبيقه على قراءة الأعمال السردية، وبخاصة في الرواية؛ وهو عرض لا بد من تقديمه بطريقة متكاملة من خلال النظر في الكيفية التي يقدم بها الكاتب شخصيته، دون أن يفرض من

(١) للمزيد انظر فيليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية. ترجمة: سعيد بن كراد،

طبعة مزبدة ومنقحة، بيروت: دار الحوار، ص: ٤، ١٩٨٣م.

(٢) نقلاً عن: معجم السرديات، ص: ٢٧٠، ٢٧١، ٢٠١٠م.

ملاحح السرد

يقوم بقراءة النص رأيه في توجيه الشخصية إيديولوجياً لغرض معين، سياسي أو مجتمعي أو ديني: "إن ارتباط الحدث بالشخصية والشخصية بالحدث يعني التفاعل بينهما، بحيث يقدم الكاتب من خلال الحدث أبرز سمات الشخصية في أبعادها المختلفة من فكر وانفعال ومعتقدات وسلوكيات، وطبائع وسجايا، إلى غير ذلك، كما يقدم الكاتب جذور الحدث والدوافع إليه وآثاره ونتائجه من خلال الأبعاد التي تظهر من سلوك الشخصية وتفكيرها، فلا يكون صدور الحدث من تلك الشخصية غير معقول، ولا غريباً عنه..."^(١).

الناظر في روايات باكثير، يرى أن أهمية الحدث فيها يعود إلى أنه حصر قلمه الروائي وأفكاره في مناطق من التاريخ العربي والإسلامي، شديدة الحساسية سياسياً واجتماعياً ودينياً، ويمكن القول إن هذه الفترات التاريخية، كانت علامات تحول في تاريخ الأمة الإسلامية على المستوى الحربي والسياسي والاقتصادي، ولم يكن ذلك من قبيل المصادفة، وإنما جاء عن وعي وبصيرة بالدور الذي يمكن أن يؤديه الفن الروائي في تحقيق الوحدة الإسلامية والقومية والعربية، التي آمن بها الكاتب وظل ينافح من أجلها كثيراً.

فالشخصية لا شيء قبل أن نقرأ النص، فلا توجد شخصية تسكن مخيلة القارئ قبل الولوج إلى قراءة النص؛ ولكن كلما قرأنا النص، تولد لدينا انطباع بنمو الشخصية وتضخم موقعها؛ وهذا ما يُطلق عليه (تأثير الشخصية: Effect Personality)؛ وقد لوحظ أن للشخصية التاريخية عند (يوري لوتمان Y. Lotman) فاعلية مغايرة، لها علاقة مباشرة بالتميز بين العامل والشخصية: "فالعامل هو منبع الفعل وأصله. إنه التجسيد المطلق للفعل في حين لا تشكل

(١) للمزيد انظر، نادر عبدالخالق، الشخصية الروائية بين علي باكثير ونجيب الكيلاني، ص: ٢٧٠ وما بعدها، ٢٠١٠م.

د. فايز صلاح قاسم عثمانة

الشخصيات التاريخية أو الكائنات البشرية (أبطال الخرافات) سوى أدوات^(١)، وإن كان ذلك فهذا محدد لقراءة الشخصية التاريخية وفاعليتها وتموضعها في آن من جانب لوتمان.

ولا بد للدارس أو الباحث حال الإقدام على قراءة العمل السردى بغية تحليله؛ أن يقف على رسم صورة الشخصية، أو بمعنى آخر: أن يجتهد في رسم صورة مطابقة لما أراده الكاتب -كاتب النص الروائي مثلاً- ويكون ذلك من خلال: التمييز بين صورة (بورترية) فيزيائية وأخرى نفسية؛ وهنا يقف الباحث على تقديم هاتين الصورتين بأمانة شديدة، بحيث ينحصر دوره -فيما بعد- في مرحلة (التفسير)، أي المرحلة الوظيفية للصورتين: "وتعد الشخصيات التراثية من إحدى أدوات استجلاء الإبداع، والاستعانة للدخول إلى عوالم إبداعية والحصول على معان جديدة، عن طريق استعادتها وتحويلها، أو تحميلها تجربة معاصرة، تضاف إلى تجربتها التي عرفت بها تاريخياً، فيصبح الماضي/الحاضر، أو الحاضر/الماضي، المتمثل أو المتحالف، وينتج عن ذلك انزياح عن الذاتية حينما تلتحم الذاتان وتغدوان ذاتاً واحدةً، تختلف عنهما، وتشبههما في الآن نفسه، لتتولد عن ذلك شخصية مركبة الصفات والأحاسيس والخصائص، تمثل كل حركات النص ودقائقه"^(٢).

ونوازن بهذا الصدد بين أهمية الشخصية والشخصيات الأخرى، من خلال الكشف عن طبيعة العلاقة بين الشخصيات (شخصية رئيسة، ثانوية...) مع أي شخصية أخرى تعمل الشخصية قيد الدراسة؟ ما يطلق عليه فكرة: (ثنائيات

(١) سعيد بن كراد، شخصيات النص السردى. ط، ١، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م.

(٢) رحاب الدهلكي، التناس مع الشخصيات التراثية في شعر أمل دنقل. مجلة الأستاذ، مج ١، ع ٢١١، ص: ٩٨، ٢٠١٤م.

ملاح السرد

الشخصيات: (Character Binary) وبعد ذلك يتم دراسة المخطط الفعلي للحكاية؛ وتبيان من يساعد هذه الشخصية، ومن يعارضها (أعداؤها).

وفي ضوء هذا المدخل الثلاثي الذي (يشرح^(١) Explains) وجود الشخصية في العمل الروائي نقوم بتقديم عرض تطبيقي، دون أن نخفل أبداً مفهوم الشخصية الذي عرض سلفاً في هذه الدراسة، وسيكون ذلك من خلال الدراسة التطبيقية التالية، التي نقدم فيها نموذجاً بسيطاً لطريقة درس الشخصية التاريخية في النص الروائي الحديث:

شخصية البطل في الرواية: Character hero in the novel

تقدم رواية: (النائر الأحمر) نموذجاً للروايات القليلة التي تناقش أفكاراً معاصرة، أفلقت فكر الخواص والعوام على السواء -وفي الوقت ذاته- فهي تمثل أهم أعمال (علي أحمد باكثير) التي أثارت المتلقي الناقد، الذي التفت إلى أفكارها التي تعالجها رواية لأول مرة في تاريخ الكتابات الأدبية العربية الحديثة.

وتعالج الرواية (ثورة القرامطة)^(٢) التي ترافقت -إلى حد ما- قياماً وسقوطاً، مع (ثورة الزنج) في دولة الخلافة العباسية على مدى عقود عديدة في القرنين الثالث والرابع الهجريين. وتحكي قصة حمدان قرمط وابن عمه عبدان،

(١) نشير هنا إلى أهمية المصطلح المشار إليه: (الشرح Comprehension) الذي عني الإشارة المباشرة إلى العناصر البنوية أو اللغوية التي تساعد القارئ على فهم مكونات النص من داخله. بينما يشير المصطلح الثاني: (التفسير -explication) إلى الاستعانة بعامل آخر على فهم النص الأدبي، مثل الاستعانة بأدوات علم الاجتماع، أو علم النفس، أو علم التاريخ...إلخ

(٢) للمزيد بهذا الخصوص انظر، محي الدين اللاذقاني، ثلاثية الحلم القرمطي: دراسة في أدب القرامطة، ط، ٧، ٢٠١٢م.

د. فايز صلاح قاسم عثمانة

عندما تحولاً من شخصين من عامة الناس الفقراء إلى تأثرين يقودان الجموع ضد دولة الخلافة، سعيًا لما سمي (بالعدل الشامل) وانتهت ثورتهما بالفشل بعد الإخفاق في تحقيق العدل، وانهيار دولتهما التي أقيمت جنوب العراق.

وموضوع الرواية يعد موازياً أو معادلاً موضوعياً للأفكار (الاشتراكية) وما حملته من أفكار إلى المثقف العربي من ناحية، وما لها من أثر في الإنسان العادي، دون أن يدري بما تفرض من أطر الوضع الثقافي أو الاقتصادي من حوله. وقد قدم علي أحمد باكثير في هذه الرواية، إطاراً من النبوءات التي نبهت القارئ المثقف إلى نتائج ما يسمى بالفكر الاشتراكي^(١)، وننظر فيما يأتي إلى الطريقة التي عالج بها باكثير الشخصيات؛ لنرى كيف جسد فشل الإيديولوجية الاشتراكية ومن حملها إلى العالم المسلم، وكيف جسد استحالة تطبيقها في البلدان الإسلامية، لما تحمله من قيم لإنبات نوع من العدل الشامل يتعدى حدود الشريعة الإسلامية، في إشارات واضحة من علي أحمد باكثير إلى صعوبة إقامة عدل في بلدان الإسلام دون الاتكاء إلى فكرة الإسلام نفسها، تلك الفكرة التي تجمع بين العدل والحفاظ على الآداب الإنسانية الفطرية التي يحفظها الدين: فالرواية موت، وهي تجعل من الحياة قدراً، ومن الذكرى فعلاً مفيداً ومن الديمومة زمناً موجهاً له دلالة. ولكن هذا التحول لا يمكنه أن يكتمل إلا تحت بصر المجتمع. إن المجتمع هو الذي يفرض الرواية، أي يفرض مُركباً من العلامات على اعتبارها مفارقة، وعلى اعتبارها تاريخ ديمومة...^(٢).

يقدم الراوي شخصية البطل (حمدان) وهو يعمل في مزرعة لأحد كبار الملاك من الإقطاعيين (ابن الحطيم)، الشاب الثري الذي ورث عن أبيه

(١) للمزيد انظر، المرجع السابق، ص: ٢٧٧ - ٢٧٨ ، ٢٧٨ ، ٢٠١٠م.

(٢) للمزيد انظر رولان بارت، الكتابة في درجة الصفر، ترجمة: محمد خشفة، ط، ١، حلب: مركز الإنماء الحضاري، ص: ٥٢ ، ٢٠٠٢م.

ملاحح السرد

إقطاعات في مدينة الكوفة العراقية. ويساعد (حمدان) في حرث الأرض أخته (عالية) و (راجية)؛ يصف الراوي شخصية البطل (حمدان) وصفاً خارجياً بقوله: "كان (حمدان) في نحو الخامسة والثلاثين من عمره قوي البنية جلدأ على العمل، بشوشاً لا تكاد الابتسامة تفارق شفثيه حتى في أحلك الساعات وأهول الخطوب"^(١).

وكذلك يصفه باكثرير في موقع القوة في معركة بين رجالات طرفي السلطة (ابن الحطيم) الذي يعمل لديه البطل، و (الهيصم) ذاك الثري الذي ينافس (ابن الحطيم) في تضخيم ثروته من عرق الأكارين: "فاضطر حمدان وعبدان أن يقاتلهم دفاعاً عن أنفسهما حتى تمكنا من الهرب، واتفق أن أصاب حمدان أحدهم بضربة في فمه سقطت لها أسنانه فكان أن حكم عليه بدفع غرامة ثقيلة ظل يشكو منها عاماً كاملاً"^(٢).

يقدم علي أحمد باكثرير بطله متمثلاً في شخصية فلاح يتمتع بحساسية عالية ومشاعر نفسية مرهفة. وفي غير موضع من الرواية يعالج المؤلف نفسية (حمدان قرمط)، فهو: "يعمل في حقله، وإحدى رجليه على سنة المحراث والأخرى يرفعها عن الأرض حيناً، ويلمس بها الأرض حيناً، وقد أمسك بخطام الثور الذي يسير أمامه يجر خطوه جراً ثقيلأ، والسوط في يمينه ينكت به مترفقأ على ظهر صاحبه الأعجم كلما توقف عن المسير أو تتأقل فيه، وكأن لسان حاله يقول: "أيها الثور الحبيب، كالنا محكوم عليه أن يعيش هذا الشقاء، وهذا السوط في يميني ويعز علي أن يقع على ظهرك، فلا تحوجني إلى استعماله"^(٣).

(١) الثائر الأحمر، ص: ٨

(٢) نفسه، ص: ٨

(٣) نفسه، ص: ٤

د . فايز صلاح قاسم عثمانة

تعلن هذه الفقرة عن افتتاحية الرواية، بل الصفحة الأولى فيها، بحيث تلفت النظر إلى بعض العبارات التي ترسم صورة (بورترية) لشخصية هذا الفلاح الذي يحس بشقائه، إلى درجة يجعل فيها شقاءه وشقاء هذا الثور سواء.

ومما يلفت النظر كذلك في البناء الروائي - بحسب وجهة النظر الخاصة- أن المؤلف أورد بطلاً لا يتمتع بأي معرفة سابقة تمكنه -على الأقل- من تمثل هذه الأفكار المتطورة، التي تبتعد من حيث المبدأ العام عن فكرة الدين في أساسها، متجهة إلى أفكار وضعية تدعو إلى القضاء على الطبقية وتوزيع الثروات (العدل الشامل) ولكن الإشارة الذكية التي تجعل فكرة المعرفة المحدودة للبطل مقبولة، هي أن باكثير جعل من يطلبون هذه المبادئ من أهل القرن السابع الهجري، وجعلهم من طائفة (العيارين) تدفعهم عاطفة الانتقام من الغني الظالم، وتوزيع ثرواته. ويبدو أن العوام والفقراء ينجذبون تلقائياً إلى هذه الفكرة. ويتضح ذلك من الحوار الطويل الذي جرى بين إمام المسجد (وهو عيار متخف، بل من العيارين السبعة الذين يحق لهم الاتصال المباشر برئيس العيارين) والبطل حمدان، إلى أن يقتنع هذا الأخير بالانضمام إلى هذه الطائفة التي تدعو إلى العدالة المطلقة، ولكن من وجهة نظر هذه الفئة، أي من أفكارها الموضوعية التي تذهب بها بعيداً عن الدين، تلك التي تدعو إلى أخذ الحق عبر الوسائل الباطلة^(١).

ويضع (باكثير) هذه النقلة الفكرية غير المباشرة، التي تدعو إلى طبيعة فريدة وشاذة من طبائع فرض العدل البشري بين يدي القارئ؛ ليبرهن عن نقلة فكرية مفاجئة تسود ذهن البطل. وتسفر عناصر الحوار السابق عن وصول البطل إلى فئات مؤقتة، تفرضها طبيعة هذه المرحلة الأولى التي يتعلق فيها بقوة تلك الطائفة التي تستتر بالدين في بعض جوانبها، وفي الوقت ذاته تدمن

(١) الثائر الأحمر، ص: ٧٣ - ٧٩ يتصرف.

ملامح السرد

على بعض أنواع الخمر بحجة أنها لا تذهب العقل، مثل شخصية هذا الشيخ الذي يستتر في دور إمام المسجد، ولكنه يدمن على الخمر، ويرى رأيه الخاص في تحقيق العدالة المطلقة بعيداً عن رأي الدين.

يتضح فيما يقرب من النصف الأول من (السفر الأول) تآزر العاملين النفسي والجسمي في تكوين شخصية البطل (حمدان) على الصورة التي يقدمها علي أحمد باكثير، يريد من خلالها تهئية المتلقي (القارئ والناقد) لتصور إمكانية البطل من خلال المكونين الجسمي والنفسي، لتحمل مسؤولية تحوله من شخص عادي إلى شخصية صاحبة قضية (بصرف النظر عن إيجابية القضية أو سلبيتها من وجهة نظر القارئ أو الناقد) لعل السارد يقوي من بنية النص من خلال هذا التناص التاريخي: "ونعني به إدخال شخصية تاريخية عبر استحضار اسمها أو عبر جملة دالة عليها في سياق المنطوق السردية، لها وظيفة فنية تؤديها للقصة وكذا وظيفة دلالية تتجلى عبر ربط محتوى التناص بمحتوى النص القصصي -قيد التحليل- مؤتلفة معه، أو مختلفة، مؤيدة له أو رافضة، مؤكدة لما ورد في سياقه، أو نافية إياه... إلخ"^(١)؛ فقضية البطل بدأت خاصة، يرجو من ورائها البحث عن أخته (عالية) التي اختطفها فئة من العيارين لصالح المالك، ثم تحولت إلى قضية عامة تدعو إلى العدل من خلال البحث بطريقة اشتراكية، أي من خلال إسقاطها على الجو العام في العصر العباسي.^(٢)

وهذا ما يطلق عليه (المعادل الموضوعي) الذي أشرنا إليه في مقدمة البحث. فسيكون (عبدان) مفتياً لهذا المذهب الإباضي الذي يدعو إلى ما أطلق عليه باكثير (العدل الشامل) بل سيقنع فيما بعد أن تصيح (شهر) هذه مشاعاً

(١) للمزيد انظر، آمنة يوسف، سيميائية النص القصصي. ط، ١، عمان: دار الفارس للنشر والتوزيع، ص: ٣٥٣، ٢٠١٦م.

(٢) يراجع: الثائر الأحمر، ص: ٤ - ٤٤ .

د . فايز صلاح قاسم عثمانة

بينه وبين حمدان، لكي يقنعه هو الآخر بالمذهب الذي يشيع وينشر هذا العدل المطلق (التحرر المطلق) فعندما يعود عبدان إلى حيث يقيم حمدان، يحاول أن يقنعه بوجود شخصية (الإمام المعصوم) الذي يدعو إلى العدل الشامل: "كذلك لجأ الكاتب إلى ميزة فنية أخرى هي الاعتماد على الرمز في دلالة الأسماء فعبدان تعني العبودية في معناها العام، وفي أحداث الرواية تعني عبوديته للمال ولشهوته وأغراضه الدنيوية وتعنى بقاءه وتمسكه بطموحاته المنحرفة وعبثيته بدستور السماء، كذلك دلالة الرمزية في حمدان تعني الحمد المطلق.

١-٢ آلية توظيف الشخصية والحدث التاريخي:

Personal recruitment mechanism

لعل هذا المحور، يجلي فكرة البناء الفني للبحث، من خلال تقنية عمل الشخصية وتوظيفها بنمطيتها المختلفة وطرائق عمل الراوي؛ بتحيين الأنظار وتوجيهها لها لما لذلك من أهمية بالغة الأثر في تحليل ظواهر مختلفة وتفسيرها تعرضت لها تلك الشخصية، يود الراوي البحث عن تلك المكتنزات الدفينة ومن ثم تحويلها ضمن منهجية فنية، يفيد من خلالها في عمليات متشابكة ومتداخلة أحياناً: كي يقدم للمتلقى منتجاً فنياً ومعادلاً موضوعياً يخدم كينونة النص لديه: "وقد ميز البنيويون الفرنسيون بين القصة والخطاب، فالقصة تعني الأحداث في ترابطها وتسلسلها وعلاقتها بالشخصيات؛ أما الخطاب فيظهر لنا من خلال وجود الراوي الذي يقوم بتقديم القصة، وبحيال هذا الراوي هناك القارئ الذي يتلقى هذا الحكى"^(١).

(١) للمزيد انظر، سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي. ط، ٣، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ص: ٣٠، ١٩٩٧م.

إن الوظيفة الرئيسة لاستحضار الشخصية التاريخية في الرواية، هي: التعبير عن ضمير المجتمع الجمعي، فيجلب الروائي هذا الاستحضار على لسان الشخصية ذاتها دون موارد أو شك في ذلك. وهو معجب أيما إعجاب بتلك الشخصية المستحضرة بدليل جلبه لها، منطلقاً في سرده من الماضي إلى الحاضر والمستقبل في جلب الأحداث والوقائع والأفعال، وتوظيفها في النص الروائي ويعبر به عن تجربة معاصرة، فالشخصية التاريخية ذاتها هي التي يستوحياها الكاتب من كتب التاريخ وأحداثه، ويكون موضوعها مقتبساً من سير القادة ورجال الدين، أو أصحاب الحركات والثورات التاريخية للشعوب مع مختلف أجناسها، كما عرض لها الكاتب في مختلف مناحي الرواية.

يعد النص الروائي القائم على الاستدعاء الشكلي للشخصية التاريخية في جملة؛ لبنة أساسية من لبنات النص وقوامه الفعلي، تتحد وتندمج وتتماهى مكونات الشخصية في شخص واحد يخدم غايات وأهداف الراوي في بث ما يريد وتحقيق غايته لإيصال جملة من الرؤى والأفكار للمتلقي.

مقاومة فكرة الظلم: Resisting the idea of injustice

تتمثل في الوقوف في وجه من يقوم على صناعة الظلم في المجتمع، وأهم تلك الشخصيات، شخصية (ابن الحطيم) الذي يملك الأرض ورقاب من يعمل فيها، دون حق أو عدل. ولا يكتفي بذلك بل يعتدي على حرمان الناس، فيخطف (عالية) أخت (حمدان)، ويقتل من يحاول الوقوف عقبة في تحقيق مآربه. وكذلك شخصية السيد الآخر (ابن الهيصم) الذي لا يني يفعل مثل الأول، ويسابقه في صناعة الظلم.

وتستغرق هاتان الشخصيتان (السفر الأول) إلى أن يهرب (عبدان) في لباس طالب العلم. ويعد ذلك باعثاً إلى تفسير القاعدة التي انطلق منها باكثر إلى

د . فايز صلاح قاسم عثمانة

لجوء أبطاله إلى الإيديولوجيات التي تدعو إلى العدل، وتتعلق به بأي ثمن! إن أحداث الظلم والخطف والتعدي وقطع الطرق ومحو إنسانية الأدمي هي التي دفعت بطلنا متعجلاً إلى التعلق بأذيال ما يدعى (العدل الشامل)، ولكن هل اقتنع نفسه بذلك: "فالكتابة على اعتبارها حرية، لا تدوم سوى لحظة. لكن هذه اللحظة هي من أكثر لحظات التاريخ جلاء؛ لأن التاريخ هو -دوماً وقبل كل شيء- اختيار، وهو حدود هذا الاختيار. ولأن الكتابة مشتقة من حركة دلالية صادرة عن الكاتب فإنها تلامس التاريخ بشكل محسوس أكثر من أي شريحة أخرى من شرائح الأدب"^(١)؛ وفكرة بالكثير الأساسية تنمو بنمو فكر الشخصية الأساسية في النص (حمدان)، وقد أدرك عبدان أول لقائه بأهل الباطنية من أعوان (الكرمانبي) أن الموفق أخ الخليفة "لا يستطيع أن يوافق على [إنصاف المظلومين من الأغنياء] وهو محتاج إلى الأموال للقضاء بها على الفتن، ثم لا ننسى أن الأغنياء ذوو نفوذ ولا بد من مصانعتهم"^(٢).

وكذلك تنمو شخصية البطل في التعبير عن حس المقاومة لفكرة الظلم وأدواته الفكرية، وحين تسنح الفكرة ويصبح (حمدان) عياراً، يخطف أخت ابن الحطيم، ويذهب بها إلى البصرة في نفر من أصحابه ليهدوها إلى طاغيها صاحب الزنج: "يتشكل هذا الخطاب داخل الرواية من خلال إشارات وعلامات لغوية ترد أثناء العرض أو السرد أو على لسان الشخصيات. ومن خلال هذه المؤشرات عامة يمكن وضع أحداث هذه الرواية في سياق تاريخي مرجعي

(١) رولان بارت، الكتابة في درجة الصفرة. ترجمة: محمد خشفة، ط، ١، القاهرة: مركز

الإنماء الحضاري، ص: ٢٥، ٢٠٠٢م.

(٢) الثائر الأحمر، ص: ٩٩ .

ملاحح السرد

ينتقل بنا من المجال العام المجرّد الذي يوحي به الخطابان السابقان، صراع الإنسان من أجل تحقيق أحلامه. وهو صراع يحدث في كل زمان ومكان...^(١).

يلفت باكثر إلى إيديولوجية هؤلاء الداعين إلى العدل الشامل، الذي يبحثون عنه بطرق مختلفة حتى لو انتهكت حدود الدين الحنيف، فغايتهم الأولى هي مقاومة فكرة اتحاد الدين مع أمور الدولة مهما كلف ذلك من ثمن مادي أو أخلاقي، حتى لو علموا يقيناً أن هناك نافذة للعدل على جناح هذه الإيديولوجيا الدينية. وتعلن الرواية عن ذلك من خلال فكرة البطل (حمدان) بعد أن أصبح كبير قومه يرعى مذهب العدل الشامل، ورغم قناعاته الشديدة بفساد هذا المذهب فإنه يجد حجته في أنه ينشد العدل فقط، ورغم قناعته بأن الزنج قد ثاروا ثورة باطلة ظلموا بها الناس، فإنه يجد مبرراً للذهاب إلى قائد الزنج للتحالف معه ضد الدولة من ناحية، ومن ناحية أخرى ضد زحف المذهب الديني المعتدل الذي تعبر عنه شخصية (أبي البقاء البغدادي)^(٢).

لقد أودع العباسيون الفقيه (أبا البقاء البغدادي) السجن خشية تأثيره في الناس، وجعلهم يطالبون بحقهم في الحرية والتحرر من ربة الظلم، بمطالبته الخليفة بالبحث عن حقوق الفقراء لدى الأغنياء. وعندما يستفحل أمر أنصار الكرمانى يُخرج (الموفق)^(٣) أبا البقاء من سجنه ليقاوم بفكره فكر هؤلاء. وبالطبع فإن مفتي (العدل الشامل) الذي لا يرعى ديناً ولا ذمة هو عبدان. وقد قنع بأن أصحاب الدين المعتدل أو الذين يجعلون الشريعة مرجعاً لهم، أشد

(١) محمد المسعودي، الخطاب ودوره في تشكيل الشخصية الروائية. علامات في النقد

الأدبي - النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، مج ١٤، ج ٥٣، ص: ٥٨٩، ٢٠٠٤م.

(٢) الثائر الأحمر، ص: ١٨٣.

(٣) نفسه، ص: ١٢٢، ١٩٢.

د. فايز صلاح قاسم عثمانة

خطراً على بقائهم وعلى بقاء ما أطلق عليهم الكرمانى (الأحرار)^(١)، بينما صاحب الفكر المستنير الذي يقوم على مرجعية الدين الحنيف هو (أبو البقاء).

وقد يرمى باكتير إلى حقيقة قائمة بالفعل بين أصحاب الفكر الاشتراكي (المتحرر منه بخاصة) وأصحاب الفكر الديني المعتدل. وقد كان بل ظل بينهما من التعارض محل نقاشات وجدل مستميت إلى الآن، في الرفض المطلق لكل منهما للآخر.

قدم باكتير لعمله الأدبي بأن جعل من بطلها شخصية معتدلة، تقوم على الفطرة السليمة في الحكم على الأشياء، وبخاصة المعطيات الفكرية التي تنمو بنمو الرواية، ولذلك عندما يقترب من نقطة الاختبار الحقيقية للشخصية السوية، يجد السارد يقول عن حمدان: "وكان حمدان شديد الإعجاب بهذا الفقيه النادر (أبي البقاء) المثال الذي امتاز على أنداده من العلماء والفقهاء بشجاعته وغيرته على الحق، وانتصاره للمظلومين، ووقوفه وحده مندداً بطغيان المال، وجور السلطان، لا يصرفه عن ذلك وعيد ولا تهديد. فكان كثيراً ما يسأل نفسه إذا كان في الدين الواضح المعالم هذه القوة الصالحة المصلحة، وفي علمائه مثل أبي البقاء، فعلام يعدل عنه إلى ذلك المذهب الشاذ الذي طراً عليهم من الأهواز باسم إمام لا يعرف حقيقته أحد أتباعه"^(٢)؛ ومثل هذا البناء يعتمد إليه القاص لتحريك شخصياته وأبطاله، بوضع مسافة بينه وبين أبطاله مما يتيح له إمكانية إدارة البنية القصصية وتشكيلها بشكل أكثر إتقاناً...^(٣).

(١) الثائر الأحمر، ص: ١١٠.

(٢) نفسه، ص: ١٩٣.

(٣) للمزيد انظر عبدالله رضوان، البنى السردية ١ نقد القصة القصيرة. ط، ١، عمان: دار الكندي، ص: ١٣، ٢٠٠٢م.

ملاحح السرد

وبذلك تصبح الفكرة قائمة على وهم، فلا سبيل إلى إقامة عدل شامل بطرق غير عادلة تبيح الدم والعرض. بل السبيل هو إعمال العقل بغية تحقيق العدل الذي يحفظ للناس أعراضهم وأنسابهم، وشرفهم وحياءهم^(١). وقد كانت تلك إشارات علي أحمد باكثير التي يمكن قراءتها بوضوح في نهاية ختام الرواية، من هنا جاءت أهمية البنية في تداخلها وتمايزها ضمن حيز العمل السردى، وإقامة تقنياته الفنية بروى واضحة الدلالة والتعبير.

* *

(١) للمزيد انظر الثائر الأحمر، ص: ٢٩٥.

الخاتمة:

إن حقيقة البناء السردى فى الرواية قامت على وحدة خطاب سردى قدمها الراوى؛ تمثلت فى أركان الخطاب الأدبى الأساسية: المخاطب؛ والخطاب؛ والمخاطب، مثل لها الراوى من خلال الواقع المعيش وحضور الشخصيات الفاعل وإسقاط: (Project) الوقائع والأحداث التاريخية لتحيين الخطاب النقدى لديه وجعله فاعلاً ومهماً فى الرواية.

وخلاصة القول: يأتي ذلك الاستخدام؛ كى يقول الروائى تلك الشخصيات التراثية على لسانه ما لم تقله، مستحضراً الأحداث التاريخية آنذاك المعبر عنه، كى يخدم كينونة العمل الروائى وبناءه الفنى تحديداً؛ يدمج الماضى بالحاضر عن طريق تلك الشخصيات التراثية، ويصبح هذا الاستحضار ذات دلالة وقيمة فنية؛ من هنا كانت السردية تبحث فى مكونات البنية السردية للخطاب من راوٍ ومرويٍّ ومرويٍّ إليه، ولئن كانت بنية الخطاب السردى نسيجاً قوامه تفاعل المكونات، أمكن التأكيد على أن السردية هى العلم الذى يعنى بمظاهر الخطاب السردى؛ أسلوباً وبناءً ودلالةً.

* *

المصادر والمراجع

- إبراهيم عبدالله، السردية العربية الحديثة: تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، ط ١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٣م.
- بارت رولان، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص ترجمة: منذر عياشي، ط ٢، حلب: مركز الإنماء الحضاري، ٢٠٠٢م.
- بارت رولان، الكتابة في درجة الصفر، ترجمة: محمد خشفة، ط ١، حلب: مركز الإنماء الحضاري، ٢٠٠٢م.
- بارت رولان، الدرجة الصفر للكتابة، ترجمة: محمد برادة، ط ٢، بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٢م.
- برنس جيرالد، المصطلح السرد، ت: عابد خزندار. ط ١، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣م.
- بنكراد سعيد، سيميولوجية الشخصيات السردية، ط ١، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.
- بنكراد سعيد، شخصيات النص السرد، ط ١، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م.
- اللاذقاني محي الدين، ثلاثية الحلم القرمطي: دراسة في أدب القرامطة، ط ٧، ٢٠١٢م.
- رضوان عبدالله، البنى السردية: نقد القصة القصيرة، ط ٢، عمان: دار الكندي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م.
- السيد وجيه، الرواية والتراث العربي: قراءة في روايات جمال الغيطاني، ط ١، الكويت: آفاق للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.

- د. فايز صلاح قاسم عثمانة
- العيد يمى، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنوي، ط ١، ١٩٩٩م.
- القاضي محمد وآخرون، معجم السرديات، ط ١، تونس: دار محمد علي للنشر، ٢٠١٠م.
- كيني ويليام، كيف نحلل القصص، ترجمة: ناصر الحجيلان، ط ١، الرياض: كرسي عبدالعزيز المانع، ٢٠١١م.
- ميهوب محمد آيت، الرواية السير ذاتية في الأدب العربي المعاصر، ط ١، عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م.
- نادر أحمد عبدالخالق، الشخصية الروائية بين علي أحمد باكثير ونجيب الكيلاني، القاهرة: دار العلم والإيمان، ط ١، ٢٠١٠م.
- هامون فيليب، سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة: سعيد بنكراد، طبعة مزيدة ومنقحة، بيروت: دار الحوار، ١٩٨٣م.
- ولسون كولن، فن الرواية، ترجمة: محمد درويش، ط ١، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٨م.
- اليوسفي محمد لطفي، فتنة المتخيل، ط ١، المجلد الثالث، دن، ٢٠٠٢م.
- يوسف آمنة، سيميائية النص القصصي، ط ١، عمان: دار الفارس للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م.
- يقطين سعيد، الرواية والتراث السردية، ط ١، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢.
- يقطين سعيد، تحليل الخطاب الروائي، ط ٣، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧م.

الدوريات:

- إبراهيم عبدالله، بناء السرد في الرواية الأردنية المعاصرة، أفكار، ع١٣٥٤، ص: ٣٣-٥٦، ١٩٩٩م.
- حداد نبيل، أزمة الشخصية المحورية بين العام والخاص في ثلاث روايات من الأردن، مؤتة للبحوث والدراسات: سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج١٠، ع٢، ١٩٩٥.
- الدهلكي رحاب، التناس مع الشخصيات التراثية في شعر أمل دنقل، مجلة الأستاذ، مج١، ع٢١١، ٢٠١٤م.
- سعادة حسناء، تشكلات الشخصية الروائية، مجلة الباحث، ع٣، ٢٠١٠م.
- المسعودي محمد، الخطاب ودوره في تشكيل الشخصية الروائية، علامات في النقد الأدبي - النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، مج١٤، ج٥، ٢٠٠٤م.

* * *